

الباب الأول
التعريف بالخطابة

obeikandi.com

التعريف بالخطابة

الخطابة هي فن الاتصال بالقلوب عن طريق الأذان، وهي وسيلة مهمة للوصول إلى كثير من الأمور التي يحتاج إليها البشر في السلم والحرب، في الخير والشر، في الأفراح والأفراح.

وتنقسم الخطابة لأقسام عديدة منها الحماسي والديني والفلسفي والعلمي وغيرها الكثير بحسب المناسبة والزمن ونوعية المستمعين.

وقد اهتم الباحثون، والمفكرون، والدعاة إلى الله عز وجل ببيان تعريف الخطبة، وأصولها، ومقوماتها، وتطورها، والنماذج الصالحة من الخطباء الذين تركوا أثراً طيباً في مجتمعاتهم وكانوا قدوة لغيرهم.

فعرف الحكماء الخطابة بأنها: مجموعة قوانين يقتدر بها على الإقناع الممكن في أي موضوع يراد.

وهذا الإقناع عبارة عن: حمل السامع على التسليم بصحة المقول وصواب الفعل أو الترك^(١).

وعرفها ابن رشد بأنها: "قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأشياء"^(٢).

كما عرفها بعض المحدثين بأنها: "فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالاته"^(٣).

ومن تعريفاتها أيضاً أنها: "فن من فنون الكلام يقصد به التأثير في الجمهور عن طريق السمع والبصر معا"^(٤)..

(١) مذكرة "الخطابة" للشيخ علي محفوظ ص ١٠ - الطبعة الثالثة.

(٢) تلخيص الخطابة لابن رشد - تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي ص ١٥.

(٣) فن الخطابة للدكتور أحمد الحوفي ص ٧ - طبعة نهضة مصر بالقاهرة.

(٤) الخطابة في الإسلام.. للدكتور جمعة الخولي، والدكتور مصلح بيومي.

كيف تكون خطيباً

أما الفلاسفة فقد اعتبروا الخطابة علماً له أصول وقوانين تمكن الدارس له من التأثير بالكلام، وتعرفه وسائل الإقناع بالخطاب فى أى غرض من الأغراض الكلامية، وأن هذا العلم يعنى بدراسة طرق التأثير، ووسائل الإقناع، وما يلزم أن يكون عليه الخطيب من صفات وآداب، وما ينبغى أن تكون عليه أساليب الخطبة، وترتيب أجزائها، وهو بهذا نبراس يهتدى، ومصباح ينير السبيل أمام من عنده استعداد للخطابة ليربى ملكته، وينمى استعدادة..^(١)

إلى آخر هذه التعريفات المتعددة- قديماً وحديثاً- للخطابة، والتي تهدف كلها إلى معرفة أنها: فن إلقاء الكلام على جمهور من الناس، سواء أكان ارتجالاً أو تحضيراً.. وهذا بالطبع لن يكون إلا بالابتكار المبنى على التفكير السليم، والتنسيق المبنى على الترتيب المنطقى الذى لا يصطدم مع العقل، والتعبير المبنى على توضيح الأفكار..

ولكن قبل أن نلقى الضوء على كيفية إعداد الخطبة وعن المواصفات التى يجب توافرها فى الخطيب لابد لنا من إعطاء نبذة ولو بسيطة عن تطور الخطابة حتى وصلت إلى ما نحن عليه الآن عبر العصور.

* * *

(١) الخطابة للشيخ على محفوظ ص ١١-١٢.

تطور الخطابة

ما دمنا تطرقنا لموضوع الخطابة فلا بد لنا أن نلقى نظرة على تطورها بصفة عامة، والعوامل التي أدت إلى هذا التطور.

وإذا دققنا النظر في الخطابة سنجد أنها فطرية في الإنسان منذ أن خلق، وبالتالي لم يخل منها أى مجتمع من المجتمعات التي حفظ التاريخ آثارها من أقدم العصور وإلى يومنا هذا.. ولنتناول تطورها من زمن إلى آخر.

الخطابة في اليونان

إذا ما نظرنا إلى أمة اليونان وقرأنا في تاريخها سنجد ملئاً بالكثيرين من البلغاء والفلاسفة الذين كانوا يستطيعون تحريك الشعب إلى ما يريدون.

وكان هذا بالتحديد أكثر في أثينا في القرن الخامس قبل ميلاد السيد المسيح - عليه السلام - حيث كان الناس في ذلك الوقت يجدون لذة في الاستماع إلى خطيب بارع يتحدث إليهم في موضوع من الموضوعات المحببة إلى نفوسهم، وكان للخطابة دور كبير في تشكيل حياتهم.

الخطابة في المسيحية

ولما جاء الدين المسيحى بعث فيها روحاً جديدة وقام الرسل بالتبشير فكانوا كلهم خطباء، إذ قيل لهم سيروا في الأرض وعلموا الأمم، وقد قامت الكنائس على آثارهم.

ولحاجة هذا الدين إلى إرشاد مستديم نبغ بعض آباء الكنائس في فن الخطابة، وكان هذا سبباً في ازدهارها.. ولكن سرعان ما دب الضعف فيها.. فما أسباب ذلك؟!

• الضعف الخطابى وأسبابه:

على الرغم من توجه الفن الخطابى ووصوله لأعلى معدلات

نضجه فى القرن الخامس الميلادى مع وجود نخبة مميزة من الفلاسفة والبلغاء اليونانيين، وتوجهه أيضا مع قدوم الدين المسيحى، حيث نبغ بعض آباء الكنيسة فى ذلك الفن إلا أنه سرعان ما دب فيه الضعف نتيجة لعدة أسباب منها:

- انسياب بعض اللغات الغربية إلى اللغة اللاتينية التى كان يخطب بها الخطباء.

- وجود عدد غير قليل من الخطباء الذين يتخذون هذا الفن وسيلة للكسب وجمع المال والهدايا، فنزلت بذلك عن مقامها السامى^(١).

وظلت الخطابة فى ذلك الزمن تضعف تارة وتقوى أخرى إلى أن جاء العصر الجاهلى، فماذا عنها فى ذلك العصر؟!

الخطابة فى العصر الجاهلى

جاء العصر الجاهلى وكان نصيب الشعر فيه أقوى من الخطابة بكثير، مما جعل أبو عمرو بن العلاء يقول: "كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم".

فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوق وتسرعوا إلى أعراض الناس حينئذ صار الخطيب عندهم فوق الشاعر واستعاد مكانته واستعادت معه الخطابة مكانتها.

وإذا بحثنا عن الأسباب التى أدت إلى اشتهاى الخطابة فى العصر الجاهلى نجدها تتلخص فيما يلى:

- الحمية الجاهلية. وشن الغارات فى المدافعة عن النفس والمال والعرض.

(١) الخطابة للدكتور نقولا فياض - طبع دار الهلال بمصر ١٩٣٠م.

- المفاخرة بالشعر والخطب في الحسب والنسب وقوة العصبية.
- شرف الخصال من الشجاعة والكرم والنجدة وحماية الجار وإيلاء الضيم وغلبة الأمية على العرب وتعذر طرق التواصل المنظمة بينهم وتفرقهم إلى قبائل مستقلة.. إلخ.^(١)
- وإذا نظرنا في خصائص الخطابة في العصر الجاهلي نجدها تتلخص في:

- قصر الجمل وتخيير اللفظ.
- عدم الاهتمام بالمقدمات.
- التزام السجع غالباً، وسداجة الأفكار التي يطرحونها.
- ضرب الأمثال واستنتاج العبر من مصارع الطغاة وظواهر الكون.

وكان من أشهر الخطباء في ذلك العهد: قيس بن خزيمة بن سنان خطيب حرب داحس والغبراء، وخويلد بن عمرو الغطفاني خطيب يوم الفجار، وقيس بن ساعدة الأبادي خطيب عكاز، وأكثرهم صيفي.. إلخ.

الخطابة في الإسلام

عرفنا فيما سبق أن اليونانيين والرومانيين، والرسول في المسيحية قد برعوا في فن الخطابة وتوهج بين أيديهم، وأن أهل الجاهلية تراوحوا بينه وبين الشعر فصارت تقوى تارة وتضعف أخرى.

ولكن مالم نعرفه أنهم رغم براعتهم في هذا الفن لم يستطيعوا أن يخرجوا من الخطباء النابهين مثلما خرجت البيئة العربية فيما يقرب من أربعين سنة بعد أن تشرفت بالإسلام.

ولم يستطيعوا أن يرتفعوا بخطبائهم إلى هذا المستوى عدداً وعدة وتوسعا وتنوعاً في أفانين القول وازدهارا في مجال النمو،

(١) مذكرة الخطابة، للشيخ علي محفوظ - الطبعة الثالثة.

وأن هذه الدعوة الدينية كما أحدثت انقلاباً لا مثيل له فى المجتمع البشرى قد أحدثت فى مجال الخطابة انقلاباً كبيراً، فنبئت على حواشيتها الخطابة الدينية فى صورها المختلفة، وأخرى فى السياسة والحكم والحرب والاجتماع وجدل الأحزاب والطوائف كأقوى وأروع ما تكون الخطابة، على حين لم تلد النهضات القديمة والحديثة على اختلاف مواطنها ومنابعها إلا خطابة من نوعها بخلاف النهضات الدينية، فإنها حققت الكثير من وسائل الدعوة إلى الله تعالى وفى مقدمتها الخطابة.^(١) وسنتناول فيما هو آت الفرق بين الخطابة فى الإسلام وما سبقه بإيضاح.

الخطابة فى صدر الإسلام

الخطابة فى صدر الإسلام كانت لها المكانة العليا والمقام الأسمى، وكان الخطباء ينتقون من جواهر الألفاظ أعذبها وأظرفها وأحلاها، ومن المعانى أرقها وأدقها وأعلاها، ومع ذلك فقد كانوا يضمنونها آيات من كتاب الله لتزداد حلاوة وتجذب الناس إليهم، حتى أنه كان يعاب على الخطبة أنها ليس فيها آية من كتاب الله.

الخطابة فى زمن الخلفاء الراشدين

بلغت الخطابة فى زمن الخلفاء الراشدين عنفوان شبابها، فإن القرآن الكريم بما اشتمل عليه من أساليب رائعة أعانهم على الخوض فى عباب البلاغة.

ولم تكن الخطب فى مجتمعهم تتقيد بوقت معين، بل كلما دعت الحاجة إلى القول اجتمعوا فألقيت عليهم الخطبة استثارة أو وعظاً أو تذكيراً أو إعلان أوامر أو ما إلى ذلك من أغراض.

وكان الخطيب إذا قال فى أمر ما سحر الأبواب وفتح بآيات الوعظ ما لا يفتح بالسيوف المرفهة يؤلف من فرقة ويسكن من فتنة ويقطع المنازعات ويزيل الأحقاد.

(١) الخطابة فى صدر الإسلام للدكتور محمد طاهر درويش - ج ١ ص ١٨١ - ٤٤٢ مطبعة دار المعارف ١٩٦٥ م.

• عوامل ازدهار وتطور الخطابة في الإسلام:

من أهم العوامل التي أدت إلى ازدهار الخطابة في العصر الإسلامي:
 أولاً: ظهور رسالة المصطفى ﷺ التي أخرجت العالم من
 الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى.

فكانت الدعوة إلى الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
 وقمع الفتن وردع البدع، وتحميس الجند من أهم أغراض
 الخطابة حينئذ.

وكان لها من آيات القرآن الكريم وحججه معين لا ينضب وممدد
 لا ينفد^(١)... والدليل على ذلك ما ذكره القرآن الكريم من أسلوب
 خطابي في بعض الأحيان على نمط لم يألفوه من قبل فهو يقصد إلى
 التأثير والإقناع معا بطريقة أجبرتهم على أن يتتبعوا خطاه ويسيروا
 على منواله مثل ما قاله تعالى لبنى إسرائيل: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا
 نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونُ﴾^(٢).

﴿وَعَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا
 تَشْتَرُوا بِآبَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا
 الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْزُقُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(٣).

إلى أن قال تعالى: ﴿أَفَنْظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ
 مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ
 يَعْلَمُونَ﴾^(٤).

فإذا التفتنا إلى هذه الآيات الكريمة نجد فيها الأسلوب الخطابى،
 ويشتمل على مقدمة للموضوع الذى يراد شرحه، ثم عرض لهذا

(١) تاريخ الأدب العربى للأستاذ أحمد حسن الزيات - الطبعة السادسة.

(٢) سورة البقرة الآية ٤٠.

(٣) سورة البقرة الآية ٧٥.

(٤) سورة البقرة الآية ٧٥.

الموضوع، وأخيراً الختام الذى يذكر أهم الحقائق التى لابد منها للمدعو.

ليس ذلك فقط بل نجد القرآن الكريم يعلمهم فن القول. وهذا يتضح لنا فى خطابه المباشر لرسوله ﷺ، فقد خاطبه فى كثير من المواطن بقوله "قل" التى ذكرت فى القرآن الكريم ٣٢ مرة. مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَايَتُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(١)، ﴿قُلْ يَتَايَتُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٢)، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٣)، ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾^(٤)، ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٥)، ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾^(٦).

ثانياً: استجابة النبى ﷺ لمنهج الدعوة إلى الله تعالى، كما جاء فى القرآن الكريم حيث يقول تعالى لحبيبه ومصطفاه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٧).

وهذه الدعوة كثيراً ما تكون عن طريق الخطبة الدينية التى يقوم بها الداعية إلى الله تعالى الموفق فى أداء رسالته. ويكفى هذا الداعية فخراً وتيها ما قاله البارئ تبارك وتعالى فى حقه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٨).

لذا لما قرأ الحسن البصرى هذه الآية الكريمة قال: "هذا حبيب الله. هذا ولى الله. هذا صفوة الله. هذا خيرة الله. هذا أحب أهل الأرض إلى الله. أجاب الله فى دعوته. ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته. وعمل صالحاً فى إجابته. وقال إننى من المسلمين. هذا خليفة الله".^(٩)

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٨.

(٣) سورة النمل الآية ٦٩.

(٥) سورة العنكبوت الآية ٥٠.

(٧) سورة النحل الآية ١٢٥.

(٩) انظر: الحسن البصرى من عمالقة الفكر والزهد والدعوة فى الإسلام - رسالة دكتوراه بمكتبة كلية أصول الدين.

(٢) سورة يونس الآية ١٠٨.

(٤) سورة النور الآية ٥٤.

(٦) سورة الزمر الآية ٨.

(٨) سورة فصلت الآية ٣٣.

(٩) انظر: الحسن البصرى من عمالقة الفكر والزهد والدعوة فى الإسلام - رسالة دكتوراه بمكتبة كلية أصول الدين.

وهذا كله تمثل في شخص المصطفى ﷺ القدوة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(١).

وبلغ من اقتداء الصحابة عليهم رضوان الله تعالى بالرسول في الخطبة أنهم كانوا يفتتحونها بالتحميد والتمجيد لله، والصلاة على رسول الله ﷺ، يطلقون على الخطبة التي لم تبدأ بذلك "البترء"^(٢).

ثالثاً: الصراع بين الدعاة إلى الله تعالى وبين المعاندين من الكافرين وغيرهم، فكل منهم يريد أن يجذب الآخر نحوه عن طريق الإقناع والاستمالة. وهذا اعتمد إلى حد كبير على الخطابة.

وحتى نعرف مدى الإصرار الذي كان من المعاندين في بقائهم على كفرهم، بل في جذب المسلمين إليهم نذكر هذا الحوار بين الرسول ﷺ وبين عتبة بن ربيعة الذي كلفه قومه ليعرض على الرسول ﷺ أمورا لعله يقبل بعضها وينصرف عن هذه الدعوة، فقال عتبة للنبي ﷺ: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنتظر فيها. لعلك تقبل منها بعضها.. فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع.

قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لاتستطيع رده، طالبا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله

(١) سورة الأحزاب الآية ٢١.

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٤ طبعة مصطفى الحلبي.

يستمتع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم قال: فاسمع منى، قال: افعل، فقال: ﴿حَمْدٌ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كُنْتُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، فَرَزْنَا أَنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(١)، وأخذ الرسول يقرأ حتى وصل إلى السجدة فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

رابعاً: الأفكار الجديدة التى عمل الإسلام على بثها بين المدعويين فتقبلها هؤلاء باهتمام بالغ، لأنها كانت تغريهم دائماً وتأخذ بأيديهم إلى سبيل الرشاد.

وعلى سبيل المثال قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾^(٢)، فهذه دعوة من الله تعالى إلى عباده للتفكر فى ملكوت الله عز وجل والتطلع إلى هذا الكون الفسيح.. حتى يصل الإنسان عن هذا الطريق إلى الإيمان الصادق والحياة الصحيحة التى يجب أن يحياها الإنسان.

خامساً: الاقتباس من القرآن الكريم.. يقول الجاحظ: "إن الخطبة إذا لم توشح بآيات من القرآن الكريم سميت "شوهاء"^(٣) ويقول أيضاً: "كانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل وفى الكلام يوم الجمع أى من القرآن، فإن ذلك ما يورث الكلام البهاء والوقار والركة وحسن الموقع".^(٤)

وفى آثار الصحابة -عليهم رضوان الله- الكثير من هذه الأمثلة مثل ما قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه فى إحدى خطبه: "الحمد لله، أحمدته وأستعينه وأستغفره وأؤمن به وأتوكل عليه، وأستهدى الله الهدى، وأعوذ به من الضلالة والتردى، من يهدى الله فهو المهتدى، ومن يضل فلن تجد له وليا مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت وهو حي لا يموت، يعز من يشاء ويذل من يشاء. بيده الخير وهو على كل شىء قدير..^(٥)

(٢) سورة الغاشية الآيات ١٧: ٢٠.

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١١٧.

(١) سورة فصلت الآيات ١: ٣.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٦.

(٥) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ١٣١.

سادساً: مبدأ الحرية الذى أقره هذا الدين الجديد. ويتجلى هذا المعنى فى أول خطبة خطبها أبو بكر الصديق عقب توليته للخلافة الإسلامية، حيث قال: "أيها الناس، إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتمونى على حق فأعينونى، وإن رأيتمونى على باطل فسدّدونى. أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم".^(١)

من هذا القول لأبى بكر الصديق يتبين لنا أن الإسلام قد ترك حرية النقد البناء لإصلاح المجتمع، لا فرق فى ذلك بين عظيم أو حقير.. مما حمل الكثير من الصحابة وغيرهم على أن ينطقوا بكلمة الحق. وبهذا ازدهرت الخطابة وأتت ثمارها.

سابعاً: مبدأ "الشورى" الذى دعا إليه هذا الدين الحنيف فى ضوء ما قاله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَتَنَبَّأُ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(٣).

ومن ذلك قال أبو بكر الصديق يوم السقيفة: "أيها الناس: نحن المهاجرون، أول الناس إسلاماً، وأكرمهم حسباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثر الناس ولادة فى العرب، وأمّسهم رحماً برسول الله ﷺ، أسلمنا قبلكم. وقدمنا فى القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ مِنْهُمُ الْبَصِيرُ﴾^(٤)، فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إلى أن قال: فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. لاتدين العرب إلا لهذا الحى من قريش. فلا تتفلسوا^(٥) على إخوانكم ما منحكم الله من فضله".^(٦)

ثامناً: ما حدث بين المسلمين بعد مقتل سيدنا عثمان ؓ من

(٢) سورة الشورى الآية ٣٨.

(٤) سورة التوبة الآية ١٠٠.

(٥) تنفسوا: نفس عليه بخير (كفرح) حسده ونفس عليه الشىء نفاسه لم يرها له.

(٦) تاريخ الطبرى ج ٢، عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٣٤.

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٠٣.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

فتنة كادت تؤدي إلى ضياع وحدتهم واجتماع كلمتهم. لولا عناية الله تعالى بعباده المؤمنين.

هذه الفتنة نشأ عنها الأحزاب والفرق المختلفة. مما حدا بكل واحد منها يريد أن يؤيد وجهة نظره، فلم يجد سوى الخطابة وسيلة يصل بها إلى غرضه، وقد امتلأت كتب الأدب والتاريخ والفرق بالكثير من هذه الخطب المتنوعة.

وعلى سبيل المثال حينما شخص الإمام على - كرم الله وجهه - من المدينة إلى البصرة، وخطب في أتباعه، فحمد الله وصلى على النبي وذكر الجاهلية وشقاها والإسلام والسعادة، وإنعام الله على الأمة بالجماعة، وذكر أن ما حدث جره على الأمة قوم طلبوا هذه الدنيا، "وحسدوا من أفاءها الله عليه وأرادوا رد الأشياء على أديبارها"^(١). وقال ﷺ: "سيروا إلى أعداء الله والسنن، سيروا إلى بقية الأحزاب وقتلة المهاجرين والأنصار، إن الله أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته فانصبوا نفوسكم في أداء حقه... إلخ"^(٢).

وقال معاوية بن أبي سفيان ﷺ: "أيها الناس، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم. إن الجنة لا يرحل من أوطنها ولا يهرم من سكنها، ولا يموت من دخلها، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم همومها، وكونوا قوما مستبصرين في دينهم مستظهرين بالصبر على طلب حقهم.. إلخ"^(٣).

تاسعاً: ما قدمه الإسلام من الحث على الزهد الصحيح وغير ذلك من الأفكار المختلفة التي عالجها هذا الدين الحنيف.

كل ذلك كان بوسيلة الخطبة التي ازدهرت بسبب هذه الصراعات المختلفة.

• أهم خصائص الخطابة في الإسلام:

بعد هذا العرض الموجز لتطور الخطابة في الإسلام يجدر بنا

(١) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٣٦، تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٨.
(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ١٢٨.
(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ١١٠.

أن نتعرض لأهم الخصائص التي امتازت بها الخطابة فى رسالة المصطفى ﷺ ونوجزها فيما يلى:

أولاً: طول الخطبة غالباً بخلاف العصر الجاهلى، فقد كانت الخطبة فيه قصيرة.

ثانياً: تقسيم الخطبة إلى مقدمة وعرض للموضوع وخاتمة.

ثالثاً: عرض الخطبة قائم على الترتيب المنطقى الصحيح الذى يعتمد على استخلاص النتائج من مقدماتها.

رابعاً: الأفكار المتجددة فى الخطابة الإسلامية.

خامساً: تدعيم الخطبة بآيات من القرآن الكريم، وأحاديث للنبي ﷺ وآثار السلف الصالح - عليهم رضوان الله تعالى -.

وفى النهاية وبعد أن تحدثنا عن الخطابة فى الإسلام وقبل أن ننهى حديثنا لابد أن نوضح وباختصار الفرق بين الخطابة فى الإسلام وما سبقها.

• الفرق بين الخطابة فى الإسلام وما سبقها:

بشئ من المقارنة نجد أن الخطابة فى عهد الإسلام قد امتازت عنها فى عهد الجاهلية وغيرها بأمور تنحصر فيما يأتى:

١- كانت لها وجهة دينية تتمثل فى خطب الجمع، والأعياد، والحج، والوعظ والإرشاد والتعليم وغير ذلك مما يستلزمه نشر الدعوة الدينية.

٢- اتباعها خطة سياسية فى مثل تأليف الجماعات والأحزاب وتوحيد الكلمة والحث والتحريض على القتال لإعلاء كلمة الله بحالة تغاير ما كان عليه العرب فى الجاهلية وما قبل ذلك.

٣- صفاء ألفاظها، وسهولة عباراتها، ومثانة أساليبها، وتجنبها سجع الكهان، وقلة القصد فيها إلى سرد الحكم القصيرة الدقيقة لمناسبة وغير مناسبة، خلافاً لما كان عليه خطباء الجاهلية.

٤- قوة تأثيرها ووصولها إلى أعماق القلوب وامتلاكها للوجدان والشعور بما رقق القلوب الغليظة القاسية وأسأل الأعين الجامدة.

٥- محاكاتها أسلوب القرآن الكريم في الإقناع واستمدادها من آياته حتى اشتراط بعض الأئمة اشتغال الخطبة على شيء منه.

٦- بداعتها بحمد الله عز وجل والثناء عليه، والصلاة والسلام على النبي وآله وصحبه. هذا ولم تسعد العرب بكثرة الخطب والخطباء مثلما سعدت به في العصر الإسلامي الميمون.^(١)

* * *

(١) سبيل الحكمة في الوعظ والخطابة للشيخ علي محفوظ ص ٥٢ وما بعدها.